الخلوة والمراقبة الروحية: أبعادها الوجودية ودورها في استعادة الذات الحقيقية

السلوك في ساحة العمل: لماذا تُعدُّ الخلوة والمراقبة الروحية ضرورة وجودية للإنسان المعاصر؟

يعيش الإنسان في عصرنا الراهن غارقاً في شبكة معقدة من الأدوار والانشغالات الذهنية التي تُبقه أسيراً لتشتتٍ مستمر. لنأخذ على سبيل المثال شخصاً استطاع بلوغ ذرى النجاح في مساره المهني والأكاديمي؛ فهو يتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، وحياة أسرية مستقرة، وقدرات علمية فذة، ومع ذلك، يجد في أعماق تلك النجاحات اضطراباً داخلياً لا يهدأ. هذا الاضطراب لا ينبع من نقص في الوسائل المادية، بل هو نتاج الانفصال عن "مركز الثقل الوجودي". إن الكثير من الأفعال البشرية، إذا ما افتقرت إلى هندسة وجودية دقيقة، تغرق الإنسان في دوامة من نسيان الذات، بدلاً من أن تقرّبه من كماله. للخروج من هذا المأزق واستعادة "الذات الحقيقية"، لا تبرز الخلوة والمراقبة الروحية كمجرد اقتراح أخلاقي، بل كضرورة وإلزام وجودي، يرسم معالم الطريق لعودة "القلب السليم" إلى صاحبه، وهو الله عز وجل.

علم الوجود ومكانة الخلوة والمراقبة الروحية

على الإنسان، في كافة أبعاد حياته_ من الأفعال الفردية إلى التفاعلات الجماعية_ أن يعتبر "الذات الحقيقية" هي رصيده الأصيل والوحيد. فكل فعل أو خيار في عالم الوجود، لا يكتسب قيمته المعرفية إلا إذا وُجِّه لخدمة هذه الذات الحقيقية. وباعتباره كائناً مأموراً بالعودة إلى أصله بـ "حالٍ سليم"، يحتاج الإنسان إلى نموذجٍ يعمل على تحويل كافة أبعاد حياته إلى "نور". وفي هذا السياق، لا تُعدُّ الخلوة والمراقبة الروحية نشاطاً هامشياً، بل هي الركن الأهم في إدارة الحياة لضبط هذه العلاقة الجوهرية.

إن الكثير من الإخفاقات الوجودية تنشأ من رؤية الإنسان لنفسه مجردَ رقم في هذا الوجود، وسعيه إلى تحقيق تطلعاته اعتمادًا على قدراته المحدودة. فهو يغفل أن حسن تدبير الحياة يقتضي أن تكون كل علاقة، وكل دور اجتماعي، وكل إنجاز، في نهاية المطاف، وسيلةً لنفع الذات الحقيقية والارتقاء بها. ولا يقتصر أثر هذا الارتقاء على الفرد وحده؛ بل إن استقامة الإنسان في علاقته بذاته تنعكس خيرًا وبركةً على شريك حياته

وأبنائه وسائر محيطه الاجتماعي. ومن هنا، فإن أساس الحياة الأصيلة يكمن في تحويل ما يمتلكه الإنسان من إمكانات، وما ينسجه من علاقات، وما يحققه من إنجازات، إلى منابع للنور والخير. غير أن هذا التحول لا يتحقق إلا حين يفسح الإنسان في حياته مجالًا للخلوة مع ذاته، والتأمل في مساره، والسعي إلى الارتقاء بروحه ووجوده.

آليات ضبط النية في محراب الخلوة والمراقبة الروحية

في سياق مراتب الوجود، تبرز مرتبة تُعرف بـ«ما وراء العقل» (أو الطبقة الخامسة)، وتتولى توجيه سائر أبعاد الكيان الإنساني. وتتمثل وظيفتها في توجيه الميول وتهذيبها، غير أن فاعليتها تظل رهينة تغذيتها وتقويتها من خلال الاتصال المستمر بـ«المعشوق» المطلق، بما يمكّنها من بسط نفوذها على سائر الأبعاد الوجودية وتوجيهها. ومن دون هذا الاتصال، قد تفقد العبادات والاجتهادات والخدمات الاجتماعية، بل وحتى الفضائل الأخلاقية، قدرتها على الإسهام في التكامل الروحي، بل قد تتحول إلى حُجُب تحول بين الإنسان والحق. ومن هنا، يكشف التأمل في حقيقة الخلوة والمراقبة الروحية عن دورهما الجوهري في الحد من طغيان سائر الأبعاد الوجودية، وإعادة توجيه الإنسان نحو مركزه الروحي الأصيل.

فالإنسان الذي لا يعرف الخلوة، ولا يُفعِّل "ماوراء عقله" عبر الأنس بالحق والالتجاء إلى الله وأهل البيت (عليهم السلام)، يظل عرضةً لخطر العُجب والرياء والتكبر، حتى وهو في مسار فعل الخير؛ وهي آفاتٌ تتسلل خفيةً إلى الأعمال فتقلبها إلى نارٍ تحرق صاحبها. ومن هنا تأتي حكمة أولياء الله في الإصرار على مداومة "دعاء التوسل" والاستغاثة، إذ يدرك المرء أنَّه بدون المدد الإلهي المباشر، يظل في ذروة فضائله مشغولاً ببناء جحيمه الخاص. وفي المقابل، فإن من يبلغ هذه المرتبة من الخلوة والمراقبة، لا يجزع عند حلول المصائب أو المرض أو فقد الأحبة؛ لأنه بتفعيل "ماوراء العقل" يرى في كل شيء هديةً من لدن الله، فيصل عبر كلمة «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»[1] إلى سكينةٍ غامرة. وهذا هو المقام الذي تجلّى في موقف الإمام الصادق (عليه السلام) حين قال في مصيبة فقد ولده: «سُبحانَ مَن يَقتُلُ أولادَنا وَ لا نَزدادُ لَهُ إلاّ حُبا[2]»؛ حبٌّ لا تنال منه نوازع الألم ولا تنقصه المحن.

---

١ سورة البقرة، الآية ١٥٦.
٢ ميزان الحكمة، ج ٦، ص ٣٧٤؛ وسائل الشيعة، ج ٢، ص ٩٢٠، الباب ٨٧.

هندسة الآمال وتنزيلها في محراب الخلوة والمراقبة الروحية

المراقبة الروحية هي يقظةٌ دائمة للذات الوجودية، يتفقد الإنسان من خلالها أحوالها لحظةً بلحظة، لئلا تتجاوز حدود الله ولا تستعظم مكانتها في عالم الوجود. أما الغفلة، فهي الإخفاق في هندسة الأمنيات على نحو دقيق، وسوء الاختيار في ترتيب المحبوبات. فالإنسان الغافل يعيد ترتيب مكانة الله وأهل البيت والجهاد في هندسة قلبه، فيُنزِلها عن مراتبها التي ينبغي أن تتبوأها في وجدانه.

لقد وضع القرآن الكريم إطاراً للنمو الفردي والجماعي من خلال «تَواصَوْا بالْحَقّ وَ تَواصَوْا بالصَّبْر»[٣]، يُفترض فيه أن يرسم الإنسان مسار تكامله على نحو يجعل الله وأهل البيت والجهاد في سبيل الله أحبَّ ما في قلبه وأعزَّه عليه. وهذه الهندسة القلبية ضرورةٌ حاسمة للاستعداد للإجابة عن أسئلة الآخرة؛ إذ إن الإنسان، إذا لم تتجه بوصلته نحو هذه المحبوبات الثلاثة في أنشطته العلمية، وعلاقته الزوجية، وسائر شؤونه الاجتماعية، فقد يجد نفسه أمام طريق مسدود حين يُسأل عن أعماله ووجهتها. ومن هنا، تصبح ممارسة الخلوة والمراقبة الروحية أداةً لإعادة ضبط هندسة الأمنيات وترتيب المحبوبات.

وتتجلى هذه المراقبة في سيرة العلماء المهذَّبين الذين تحرروا من أسر الأنا، ومنهم الملا هادي السبزواري. فقد كان، حين يشعر بأن ألسنة الثناء والتكريم من الناس توقد في نفسه جذوةً متصاعدة، يبادر عن وعي إلى تغيير مكانته الاجتماعية، اتقاءً لخطر تضخم الأنا والاستعلاء، حتى إنه كان يقبل بأن يعمل خادمًا في مدرسة مغمورة لا يعرفها الناس. ويجسّد هذا الموقف صورةً من صور الخلوة والمراقبة الروحية، حيث يضحّي الإنسان بأمنيات زائفة، كالشُّهرة والتكريم، صونًا لذاته الحقيقية وحمايةً لها من أن تحجبها الأوهام عن حقيقتها.

نقطة الارتكاز الوجودية: الخلوة... استباقٌ واعٍ لمواجهة الأبدية

من الحقائق اللافتة في الرؤية الشيعية للإنسان أن الخلوة والمراقبة الروحية، خلافًا لما قد يُظن، ليستا ميلًا إلى العزلة أو فرارًا من معترك الحياة، بل هما ضربٌ من الاستعداد الواعي للقاء الأبدية، واستباقٌ للمساءلة قبل حلول يوم الحساب.

---

[٣] سورة العصر، الآية ٣.

فالإنسان الذي يعيش من دون مراقبةٍ لذاته قد يستنزف قدرًا هائلًا من طاقته وجهده في شؤون لن يُسأل عنها أصلًا في ميزان المعاد، بينما يغفل عمّا سيُحاسَب عليه حقًّا. وفي بيان هذا المنعطف الجوهري، يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الْأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ»[٤]؛ وتنكشف أمام الإنسان حقيقةٌ مدهشة حين يدرك أن كثيرًا من مساعيه اليومية، على كثرتها وتشعّبها، لم تكن سوى انشغالات متراكمة تفتقر إلى الغاية، لأنها لم تتصل بالمحبوبات الثلاثة التي ينبغي أن تدور في فلكها حياته: الله، وأهل البيت، والجهاد في سبيل الله.

ومن هذا المنطلق، يعيد الإمام السجاد عليه السلام، في أفق دعائه العميق، توجيه أعمال الإنسان كلها نحو ما سيُسأل عنه غدًا، فيقول:: «وَ اسْتَعْمِلْنِي بِمَا تَسْأَلُنِي غَداً عَنْهُ، وَ اسْتَفْرِغْ أَيَّامِي فِيمَا خَلَقْتَنِي لَهُ»[٥]؛ وعلى هذا الأساس، تتمثل ثمرة المراقبة الروحية في إنقاذ رصيد العمر من الاستنزاف في محطاتٍ عقيمة، وتحويل مختلف ميادين العمل والعلم والأسرة إلى ثرواتٍ حيّة ذات قيمة وجودية؛ ثرواتٍ يستطيع الإنسان أن يقدمها بين يدي الله غدًا، مدافعًا عن وجهتها، راجيًا أن يبقى أثرها ولا يضيع ثوابها.

الثبات في السير على طريق الحق

حين يُفعّل الإنسانُ طبقة "ما فوق العقل" ويبلغ عبر الاستغاثة إلى المراتب الوجودية الأعمق، لا يعود "المداراة مع الخلق" مجرد تقنية أخلاقية، بل يصبح خصلةً وجودية متأصلة؛ فهو لا يضيق بالخلق، لأنه يرى نفسه في رحاب الله وأهل البيت. إن الخلوة والمراقبة الروحية هما ما يمنحان الإنسان القدرة على رصد الغفلة في كل لحظة، وإعادة هندسة أمانيه لتستقيم مع "الحق".

ومن الضروري التأكيد على أن الغاية القصوى ليست مجرد تأدية شعائر تعبدية فردية، بل هي بناء نمط حياة إنساني، تؤول فيه كل حركة وكل سكنة إلى نفع "الذات الحقيقية". الخلوة والمراقبة هما الضامن لكي لا تخرج حتى أشد الأفعال الاجتماعية والجهادية عن مدار النية القلبية الصافية نحو الذات الحقيقية ومبدئها الأول. والإنسان الذي يبلغ هذا المستوى من الثبات، لا يتزلزل في أحلك الظروف، بل يستحيل كل حدثٍ

[٤] غرر الحكم ودرر الكلم، ج ١، ص ٣٠٠.

[٥] الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٠، الفقرة ٢.

يواجهه إلى رافعةٍ للرشد والنمو. وفي نهاية المطاف، يجب الإقرار بأن السلامة الأبدية والنجاح في ساحة الحساب أمرٌ محالٌ دون الاستمرار في الخلوة والمراقبة الروحية.

ختاماً، لا بد من الالتفات إلى هذه الحقيقة الجوهرية: إن طريق عودة "القلب السليم" إلى ربه هو مسارٌ وعر يتطلب هندسةً دقيقة للميول؛ فإذا لم يضبط الإنسان أعزَّ ما يملك في مدار (اللّٰه، وأهل البيت، والجهاد)، سيظل أسيراً لأمانٍ زائفة من صنع خياله. هذا هو جوهر ومحصلة الخلوة والمراقبة الروحية؛ التي ترسم معالم النجاة وسط أكثر ظروف الحياة اضطراباً.